الغول

ناقشت الندوة قصة الأطفال "الغول" لجميل السلحوت، الصادرة في أواخر آب 2007، عن منشورات مركز بعثة الطفولة الفلسطينية في رام الله، وتقع القصة، الّتي صمم رسوماتها عصام عودة، في 16 صفحة، متوسطة الحجم، ومفروزة الألوان.

محمد خليل عليان:

قصة "الغول" والتربية الحديثة

لا يجد القارئ أية صعوبة في فهم الأبعاد التربوية في قصة "الغول" للكاتب جميل السلحوت، والّتي نشرت مؤخرًا عن منشورات مركز بعثة الطفولة الفلسطينية في رام الله فلسطين. فالقصة، كما أشار الكاتب

obeikandl.com

في العنوان، وكما يوحي لنا اسم دار النشر، كتبت للأطفال، ومن أجل الأطفال، وتحمل رسائل تربوية للأطفال. وهي لذلك كتبت بلغة بسيطة، ومفهومة، وبخط كبير وواضح ومشكول، وهي تناسب الأطفال من مختلف الأعمار والمستويات، ومرفقة بالرسومات الملونة الجميلة والمعبرة، والّتي ترافق تسلسل النصّ، وتساهم في تنمية تخيّل الطفل للأحداث من خلال الإيحاءات بالمكان والزمان.

ورغم أن القصة قصيرة جدًّا (16 صفحة من القطع المتوسط ولا تحتوي الصفحة سوى عدة أسطر)، إلا أن تحليلها، والوقوف على مغازيها، وأبعادها، يطول، وربما يتجاوز عدد صفحاتها بكثير. وتوخيًّا للاختصار، وعدم تكرار ما قد يتعرض له الزملاء في الندوة، فإنني أرغب في التطرق إلى ما يأتي:

1. الخرافة والطفولة: تناول الكاتب في قصته موضوع الخرافة من خلال قصة الغول الّتي روتها الجدّة لخديجة الطفلة الصغيرة، الّتي لم يشأ الكاتب أن يفصح عن عمرها ليترك لنا حرية الاجتهاد من خلال الحدث والرسومات. ويبدو أن الجدّة أسهبت في وصف الغول أمام الطفلة إلى درجة الرعب والخوف، ونتيجة لذلك حلمت به، وشاهدته في الحلم على نحو أكثر رعبًا من رواية الجدّة، إلى درجة أنها بالت في ملابسها، واستيقظت خائفة مرتجفة. من الواضح أن الكاتب يريد القول هنا إن

الخرافة لم تعد أسلوبًا لتربية الأطفال، ولا مصدرًا لثقافته، مثلما كانت في زمن سابق. ولم تعد تحتل موقعها في حديثنا اليومي، ولم تعد وسيلة لتنمية خيالنا.

لقد ارتبطت الخرافة في طفولتنا بالجدّة أو الأمّ الّتي تجمع أحفادها أو أطفالها في ليلة من ليالي الشتاء حول موقد الحطب، أو تحت الغطاء لتحدثهم عن "حديدون والغولة"، أو عن "ليلى والذئب"، أو "العجوز الساحرة"، وغيرها من الخرافات الّتي كان بطلها امرأة، أو رجل، أو طفل، وقع في حبائل خديعة إنسان، أو حيوان، أو مخلوق خرافيّ شرير، يوصف عادة بأوصاف غير واقعية، بل وغير منطقية من حيث الشكل، أو القوة، أو القدرة على التحوّل من شكلٍ إلى آخر لخداع الناس.

والخرافة هي رواية غير واقعية تناقلها الناس عبر الزمان، وكانت في بدايتها تعكس واقعًا اجتماعيًّا، واقتصاديًّا، وفكريًّا، وكانت تحمل رسائل اجتماعية لم يكن من الممكن في حينه التعبير عنها سوى بالخرافة، وأهمها رسالة الخير والشر، والصراع الطبقي، وغير ذلك. وقد صدق الكاتب عندما صور الخرافة بهذا النحو من الرعب، وكأنني به يقول إنّ زمن الغول والساحرات والحيوانات الّتي تتحول إلى إنسان قد ولّى، ولم يعد الطفل يصدق هذه الروايات الخرافية؛ لذلك لم يعد بحاجة إليها، ولا يجب أن نفرضها عليه، ونجعلها وسيلة للتربية، أو حتى للتسلية.

وجاء ذلك على لسان المعلمة الّتي أوضحت للطفلة بأن الغول مجرد خرافة لا أساس له في الواقع. وإذا كان الكاتب يرفض استخدام الخرافة كوسيلة لتربية الطفل، فإنه يطرح البديل الأنسب في هذا الزمان، وهو تعريف الطفل إلى الواقع الذي يعيش فيه، وربطه بشكلّ مباشر بحاضر وثقافة مجتمعه، وذلك لمواكبة التطور الثقافي العلمي السريع. وهذه رسالة عميقة في الزمن الذي يعيش فيه الطفل الفلسطيني في خضم أحداث سياسية، واجتماعية، وعسكرية، يعجز الكبار عن استيعابها، فما بالكم بالأطفال؟! فإذا كانت خديجة قد ارتجفت وبالت في فراشها إثر رؤيتها حلمًا يصوّر الغول أنه كجبل الزيتون، فالطفل الفلسطيني- كما تقول الدراسات النفسية- يبول في فراشه إثر رؤية أعمال القتل والتدمير الّتي يقوم بها الاحتلال يوميًّا، وتطال الأطفال أيضًا. وإذا كان الغول في قصة السلحوت خرافة، فإن غول الاحتلال واقع يعيشه الطفل الفلسطيني كلّ يوم.

2. قد لا يكون هذا جديدًا في قصة الغول، ولكنه ظاهرة فنية بارزة تثري القصة، وتتيح للطفل التخيّل والتصوّر كما يشاء. إنها الرسومات الّتي ترافق النص كلمة كلمة، فإذا كان الطفل لا يستطيع تخيل خديجة من خلال النص، فيكفي أن يلقي نظرة سريعة على الرسم، ليعرف أنها صغيرة وحزينة وخائفة وغير ذلك. وقد أضفت الرسومات في قصة

السلحوت بعدًا فنيًّا آخر على القصة، وأثرتها من الناحية الجمالية، وجعلت شكلها مقبولًا لدى الأطفال، وخصوصًا الألوان الجميلة والمعبرة جدًّا.

ولكن من أجل أن تعطي الرسومات الإيحاءات الّتي يقصدها النص، يجب أن تكون أقرب إلى التصوير الذي يعنيه الكاتب، ويقصد نقله إلى القارئ، وربما يكون ذلك ممكنًا لو كان الكاتب هو نفسه الرسام، أمّا إذا كان الرسام غير الكاتب، فإننا نكون أمام حالتين فنيتين، لكلّ واحدة منهما خصوصية، وثقافة، وأسلوب. وهذا ما لاحظناه في الرسومات الّتي رافقت النص في قصة الغول الّتي لم تكن منسجمة تمامًا مع النص، حيث جاءت صورة الغول في الرسم تشبه صورة التّنين برأسه وعنقه، في الوقت الذي تصور فيه الخرافة الغول بأنه عجوز شمطاء، تتحول كما تشاء من أجل أن توقع بالضحية. وفي خرافات أخرى كان الغول يشبه حيوانًا ذا رأس كبير، ولكن ليس له عنق طويل. وفي الوقت الذي أظهر فيه الرسام الجدّة العجوز في غرفة مسقوفة بألواح الخشب يتوسطها عمود خشبي داعم، إيحاء منه بالقدم والتأخّر، فإن رسم الغرفة الّتي تظهر فيها الأمّ إضافة إلى الحمام، يوحي بأن المنزل مبني على الطراز الحديث. ورغم أن الكاتب صوّر الأمّ بأنها قاسية توبّخ طفلتها على عمل لا يستحق هذا التوبيخ، فقد أظهرها الرسام على نحو مغاير عندما ظهرت

تمشط ابنتها في غرفة أمام مكتبة مليئة بالكتب، ما يعني أنها أمّ تعيش وسط عائلة مثقفة وقارئة.

3. لقد مثّلت المعلمة الشريحة المتعلمة والمثقفة في المجتمع؛ تلك الشريحة الّتي تلعب دورًا كبيرًا وفاعلًا في تربية الطفل. ولكن الكاتب تجاهل هنا دور العائلة في التربية، فجعل من الجدّة وسيلة قديمة للتربية ومرفوضة، متمسكة بالخرافة، ولا تعي التطوّر الثقافي والعلمي الذي طرأ على المجتمع. وقد يكون هذا مبرّرًا ومنطقيًّا خصوصًا عندما تكون ثمّ ضرورة لإظهار الصراع بين الأجيال، والذي يدور حوله كثير من القصص والروايات في العصر الحديث.

وجاء الدّور السلبي تجسيدًا لتجاهل الكاتب دور العائلة. لقد وبختها الأمّ، ولم تصغ لتوسّلاتها بأن تسمعها، وتمنحها فرصة لتبرير ما جرى لها بشكلّ غير إرادي أصلًا. والأكثر من ذلك، عاقبتها بأن سكبت عليها الماء البارد في الحمام.

أعتقد أن الكاتب بالغ كثيرًا في تصوير دور الأمّ السلبي، وهي بهذا الدور لا تمثل دور الأمّ النمطي في مجتمع اليوم الذي يعتمد في ثقافته على التلفاز والإنترنت، والذي انفتح على العالم، وحطّم جميع الحواجز الجغرافية والسياسية بين مختلف الشعوب.

4. في الختام، أقدر هذا العمل أشد تقدير، وهو حقًّا يثري مكتبة الطفل الفلسطيني، ويبث رسائل تربوية وثقافية نحن بحاجة لإرسائها وترسيخها في المعركة الثقافية متعددة الأبعاد الّتي نخوضها كلّ يوم.

موسى أبو دويح:

"الغول" لجميل السلحوت وجهل الجاهلين

الغول لفظة متداولة على ألسنة العامّة، وخصوصًا النّساء اللواتي يخوّفن أطفالهنّ دومًا بالغول.

ولقد حصر الكاتب شخوص قصّته في أربعة: الطّفلة خديجة، وأمّها، وجدّتها، ومعلّمتها؛ وهذا من شأنه أن يجعل القصّة سهلة الفهم عند الطّفل، ولو كان صغيرًا، أو دون سنّ التّمييز.

فالجدّة حدّثت حفيدتها عن الغول فأرعبتها، حتّى أنّها رأت الغول في منامها فابتلعها، فبالت في ثيابها من شدّة الخوف وبلّلت الفراش. فذهبت إلى أمّها تخبرها الخبر، فانهالت عليها ضربًا وصراخًا دون أن تسمع منها سبب ذلك، وحمّمتها بالماء البارد عقوبةً لها.

ذهبت خديجة إلى المدرسة، فأخبرت معلّمتها بما حدث معها؛ فلاطفتها، وبيّنت لها أنّ الغول حيوان خرافيّ لا وجود له.

القصّة مصوّرة، والصّور فيها معبّرة وتناسب الوقائع، وظهرت فيها الأمّ والجدّة في ثياب من الزّيّ الفلسطينيّ القرويّ، وظهرت فيها صورة المعلّمة في ثياب محتشمة.

والقصّة مشكولة حرفًا حرفًا، وخلت من الأخطاء إلا ثلاثة:

1. آذان الفجر في الصّفحة الخامسة، والصّحيح أذان الفجر، فليس للفجر أذن ولا آذان.

2. في الصّفحة الخامسة له عين في منتصف (جبينة)، حيث وضعت نقطتان على التّاء المربوطة، وهي هاء مهملة بدون تنقيط.

3. وفي الصّفحة العاشرة "واستبدلت ملابسها بالمزّيّ المدرسيّ"، والصّحيح بالزّيّ المدرسيّ بدون الميم.

وهذه الأخطاء الثّلاثة أخطاء مطبعيّة لا تخفى على الشّيخ أبدًا.

أمّا الخطأ الكبير الّذي وقع فيه الكاتب فهو قوله: فأجابت المعلّمة: إنّه جهل الأمّيّين جوابًا لخديجة عندما سألت: لماذا تحدّثني جدّتي عن حيوان خرافيّ غير موجود؟ والصّحيح أن يقول: إنّه جهل الجاهلين، فالأمّيّون ليسوا جهلة ولا جاهلين؛ فكم من أمّيّ عقله أرجح من عقول كثير من المتعلّمين! وكم من متعلّم هو من أجهل الجاهلين! ويكفي دليلًا على ذلك أنّ سيد الخلق محمّدًا- صلّى الله عليه وسلّم- كان أمّيًّا، وهو معلّم

الخلق أجمعين. ولقد أحسن الكاتب في قوله: (داعبتها المعلّمة)، بمعنى لاعبتها ومازحتها ولاطفتها، والعرب تقول: هو دعّاب لعّاب.

ولقد جاءت لغة القصّة سهلة مناسبة للأطفال لا تعقيد فيها، وجاءت أدوار الشخوص فيها مناسبة لكلّ واحد منهم، فالأدوار واقعيّة مختارة من واقع الرّيف الفلسطينيّ.

وتعميمًا للفائدة، رجعت إلى "لسان العرب" لأرى ما تقول العرب في الغول، ورأيت أن أختار ممّا جاء فيه عن الغول ما يأتي:

جاء في لسان العرب في مادة (غول) غاله الشّيءُ غولًا واغتاله: أهلكه وأخذه من حيثُ لم يدر.

والغُولُ المنيّة. واغتاله: قتله غِيلةً أي في اغتيال وخُفْية وقيل: هو أن يخدع الإنسانَ حتّى يصيرَ إلى مكان قد استخفى له فيه مَنْ يقتلُه. قال ذلك أبو عبيد.

ويقال: غاله يغوله إذا اغتاله. وكلّ ما أهلك الإنسانَ فهو غول.

وقالوا الغضب غُول الحِلْم أي أنّه يهلكه ويغتاله ويذهب به.

والغُول كلّ شيء ذهب بالعقل. والغُول الدّاهيةُ.

والغول بالضّمّ السِّعلاة والجمع أغوال وغيلان. وفي حديث النّبيّ -صلّى الله عليه وسلم-: عليكم بالدُّلْجة فإن الأرض تُطْوىٰ بالليل، وإذا

تغوّلت لكمُ الغيلان فبادروا بالأذان، ولا تنزلوا على جوادّ الطّريق (جمع جادّة)، ولا تصلّوا عليها، فإنّها مأوى الحيّات والسّباع.

وفي الحديث أنّ رسول الله- صلّى الله عليه وسلّم- قال: لاعَدوىٰ ولا هامَةَ ولا صَفَرَ ولا غُول. كانت العرب تقول: إنّ الغيلان تراءى للنّاس فتغوّلُ تغوّلًا أي تلوّنُ تلوّنًا فتضلّهم عن الطّريق وتهلكهم، فأبطل ذلك النبيّ- صلّى الله عليه وسلّم- ونفاه. والغول الحيّة والجمع أغوال. قال امرؤ القيس: "ومسنونةٍ زُرْقٍ كأنيابِ أغوالِ".

قال أبو حاتم: يريد أن يكبُرَ بذلك ويعظُم. ومنه قوله تعالى: {كأنّه رؤوس الشّياطين}، وقريش لم تَرَ رأس شيطان قطّ، إنّما أراد تعظيم ذلك في صدورهم.

محمد موسى سويلم:

قالوا: المستحيلات ثلاث؛ الغول، والعنقاء، والخلّ الوفي.

قرأت لجميل السلحوت قصة للأطفال تحت عنوان "الغول"، فقصة الغول الّتي تروى للأطفال هي من القصص المخيفة للأطفال لينامو. ترى هل لا يزال هناك جدات من الزمن الجميل يروين تلك الحكايات مثل: الغول، وجبينه، وطايع أمّه، والشاطر حسن أو الشاطر محمد؟! وهل هناك أمهات يجلسن مع أطفالهن لسماع تلك الخرافات؟!

ثـمّ مـن أيـن جـاء الكاتـب بتلـك الأوصـاف طالمـا أن الغـول حيـوان خرافي؟! ثم لماذا تُوثق مثل تلك القـصص مـن أديـب وناقـد مثـل الـشيخ جميل السلحوت صاحب القلم الجادّ والجميل معًا؟!

ذكر الكاتب أن (خديجة) رأت الغول (ص5) "بحجم جبـل الزيتـون الذي يحتضن القدس من جهتها الشرقية". شكرًا للكاتب على ذكر جبـل الزيتون، وذلك أن القصة للأطفال، فكـما يعـرف أطفـال فلـسطين جبـال الكرمل وجرزيم وعيبال وغيرها، عليهم معرفة جبل الزيتون أحد جبـال القدس وهو جزء منها، وجميل أن نقدّم هذه المعلومة للأطفال.

من أي زمان هذه الأمّ الّتي انهالت ضربًا على ابنتها، والأدهى والأمرّ، حمّام بارد وبلا فطور، والذهاب إلى المدرسة بهذه الحالة النفسية الـصعبة، ولكن ربك حميد الذي أرسل لخديجة معلمة ذكية لمّاحة، احتضنت الطفلة وقبّلتها، وبهذا تكون قد امتصت الصدمة، لينطلق لسان خديجة بالحكايـة عـن قـصة الجـدّة عـن الغـول، إلى التبـوّل الـلاإرادي، إلى العقـاب ضربًـا وشتمًا، إلى الحمام بالماء البارد. هدّأت المعلمة من روع خديجة، بأن شرحت لها أن الغـول حيـوان خـرافي، وأن الجـدّة مـن الجـاهلات. وهنـا جـاء دور المعلمة في استغلال هذا الموقـف أو الحـدث لـتعلّم التلاميـذ عـن الحيـوان الخـرافي، وأن هـذه القـصص هـي نتيجـة الجهـل وعـدم التعلـيم، وعـدم

المطالعة والدراسة، وعن دور الأطفال في الحديث للجدات والأمهات عن الطبيعة وعن التعليم.

(القدس 6/ 9/ 2007)

obeikandl.com